الأواصر الثقافية التي ربطت روسيا بالعرب ولغتهم وديانتهم بدأت عمليًا في أواخر القرن السابع عشر

مسيرة العلاقات الثقافية السعودية ـ الروسية منذ مطلع القرن العشرين

عبد الرحمن الشبيلي*

بدأت فكرة هذا الموضوع قبل نحو خمسة عشر عامًا، في فعالية ثقافية أُقيمت في موسكو بمناسبة مرور سبعين عامًا على زيارة الأمير (الملك) فيصل بن عبد العزيز وزير الخارجية السعودي آنذاك إلى الاتحاد السوفياتي وبعض دول أوروبا، والتي قام بها قُبيل إعلان توحيد السعودية (1932) وبعد ثلاث سنوات من تعيينه وزيرا للخارجية في عهد والده المؤسس الملك عبد العزيز، وهذا الموضوع - الذي يحصره العنوان بإطار زمني محدد وهو مطلع القرن العشرين المنصرم، وبإطار مكاني يسمى جغرافيًا روسيا الاتحادية حاليًا - قد يُحلّق متجاوزًا حدّيه الزماني والمكاني، حيث يصعب الالتزام بدقة ببداية القرن الماضي في مثل هذا الموضوع، كما يصعب التفريق بين روسيا اليوم والاتحاد السوفياتي بالأمس.

إن أول ما سجلته العلاقات الروسية السعودية سياسيا، هو تلك الاتصالات المبكّرة بين الروس من جهة والإمام عبد الرحمن وابنه الأمير (الملك) عبد العزيز في الكويت في مطلع القرن العشرين من جهة أخرى، حيث تشير الوثائق التي عُثر عليها في العقود القليلة الماضية إلى مراسلات ولقاءات جرت في الكويت وبوشهر قُبيل استرداد الرياض وبُعيد ذلك، كانت تهدف إلى الحصول على دعم من الروس لاستعادة الحكم، وكان الروس فيها يتمنّعون حينًا مداراة للنفوذ البريطاني، بينما كانوا في أحيان أخرى على العكس من ذلك يرغبون في ما يتيح لهم إقامة علاقات وديّة مع إمارات الجزيرة العربية، وكان آخر تلك الاتصالات رسالة مكتوبة بتاريخ 30 أبريل (نيسان) 1904 مفادها أن عبد العزيز آتى إلى الكويت عام 1903 أي بعد استعادة الرياض بعام واحد، وأنه التقى بالقنصل الروسي وبقائد عسكري فرنسي كانا موجودين في الكويت حينها، حيث عرضا الحماية على المناطق التي يسيطر عليها ابن سعود، إلا أنه رفض العرض.

على أن الأرشيف الدبلوماسي لتاريخ بلاد الحرمين الشريفين، يسجل بأن روسيا القيصرية، كانت تقيم لها قنصلية في جدة منذ عام 1892 وأن روسيا السوفياتية كانت أول حكومة اعترفت بسلطة الملك عبد العزيز على الحجاز (16 - 2 - 1926) وأنها رفعت تمثيلها الدبلوماسي عام 1929 إلى مفوّضية (بمثابة سفارة) اهتمت بشؤون الحج وبتنمية العلاقات السياسية وبرعاية المصالح الاقتصادية وزيادة حجم التبادل التجاري، مما أعطى دليلاً قويًا على أهمية بلاد الحرمين الشريفين في نظر الروس، وعلى قِدم التواصل بين البلدين، وتدل الوثائق على أن العلاقات التي ربطت بين الدولتين قد حكمتها المصداقية والشفافية، ومثّلت مكاسب سياسية لروسيا وجدت فيها بريطانيا منافسة كبيرة لها حاولت مرارًا تعطيلها.

ويذكر التاريخ الدبلوماسي لفترة ما قبل الحكم السعودي اسم الأمير لُطف الله الذي كان يمثّل الحجاز في عهد الهاشميين (الأشراف) في موسكو في بداية علاقاتهما، أما بالنسبة للممثّلين الروس فإن أبرزهم اثنان، اهتم الأول منهما وهو كريم حكيموف بتطوير الصلات الدينية والثقافية، بينما اهتم الثاني وهو نذير توراكلوف بتنمية العلاقات التجارية، وقد تناولت المراجع اللقاءات المتكررة التي كان هذان المسؤولان يجريانها مع الرسميين السعوديين وعلى رأسهم الملك عبد العزيز، ولأن كريم حكيموف عاش حقبة انتقال الحكم في الحجاز من الهاشميين إلى السعوديين (1925) فقد أسهم في تأسيس العلاقات مع الدولة الجديدة، وصار عميدًا للسلك الدبلوماسي في جدة، وهو مسلم من أصل تتري يجيد الفارسية والتركية إلى جانب لغته الأصلية الروسية، وقد عاد وزيرا مفوضًا في المفوّضية الروسية في الحجاز مرة أخرى (22 - 2 - 1936) لكن فترة إقامته الثانية لم تدم طويلاً، إذ استدعي في غضون عامين وقُفلت المفوضية في عهد ستالين (11 - 1 - 1938) وكان مصير الإعدام في انتظاره، وقد تزامن قفل الممثلية مع غلق الكثير من الممثليّات السوفياتية الأخرى في أنحاء العالم بما فيها اليمن، ويقول أحد التعليقات إن السوفيات لم ينجحوا في تحقيق مكاسب كبيرة من وراء تلك المفوضية وإن ترشيد الإنفاق عامًا حظي بحفاوة بالغة على كل المستويات.

وكان مما سجله تاريخ العلاقات الجيّدة بين البلدين في الثلث الأول من القرن الماضي، مشاركة روسيا السوفياتية في المؤتمر الإسلامي العالمي الأول المنعقد في مكة المكرمة عام 1926 بشخص العلامة موسى جار الله (من قازان) وبشخصيّات إسلامية بارزة من مناطق أخرى، وتذكر المراجع أن تلك المشاركة جاءت من موسكو بهدف تعزيز مركز الملك عبد العزيز لقيادة العالم الإسلامي في مقابل جهات منافسة تدعمها بريطانيا وفرنسا.

وتذكر المراجع السعودية والروسية بالتقدير إسهام روسيا في عام 1934 في توفير وسائل الاتصال اللاسلكي، عندما كانت البلاد السعودية تفتقر إلى أدناها ولا تمتلك المال لشرائها، إذ أهدت موسكو (20) محطة لاسلكية إلى السعودية تم توزيعها في أرجاء البلاد، وكان لتلك الهدية دلالاتها الودية والاقتصادية (جريدة أم القرى، العدد 499 لسنة 1934).

لكن القارئ للعلاقات الروسية السعودية سرعان ما يستحضر تلك الفترة المعتمة التي أطبقت عليها إبان الحقبة الشيوعية ودامت أكثر من نصف قرن، لم يكن المجتمع السعودي في معظمها، يتذكر من روسيا سوى ما كانت تختزنه ذاكرته عن علماء مسلمين أفذاذ ينتمون إلى مدن روسية أو سوفياتية التبعية، حيث حالت السياسة طيلة خمسين عامًا ونيّفًا، دون أن تتصل بلاد البخاري والترمذي والخوارزمي وابن سينا مع بلاد الحرمين الشريفين، مع أن صلتهما لم تنقطع طيلة القرون التي سبقت وكانت الشعوب فيها - رغم بُعدها الجغرافي - على أعلى ما تكون الأفئدة قربًا ووثوقًا، وكان الحاج من طشقند وداغستان (محج قلعة) ودربند وقازان والشيشان وتترستان واستراخان وسمرقند وخوارزم وبخارى يمشي شهورًا، راجلاً أو ممتطيًا دابّته، ليأوي إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، يقيم فيهما ردحًا من الزمن أو يمضي بقية عمره، يعلّم فيهما ويتعلّم، ويتبادل فيهما ثقافته، لأنه يرتبط معهما برباط روحي إيماني وثيق.

وكانت روسيا في الثلاثينات، أقرضت الحكومة السعودية بعض احتياجاتها من المنتجات البترولية والحبوب والسكر، لكنها سرعان ما توقفت في الأربعينات، اللهم إلا ما تسرّب من أنواع السيارات الروسية رخيصة الثمن (موسكوفيتش) كانت تصل إلى السعودية مباشرة أو عبر وسيط ثالث، وقد أسهمت ظروف الحرب العالمية الثانية وما خلّفتها من تداعيات سياسية وآثار عقدية وفكرية وانكماش في الاقتصاد العالمي، في تراجع هذا التواصل المادي والثقافي بين آسيا الوسطى والجزيرة العربية، حتى أصبح الحجاج من الاتحاد السوفياتي يعدّون بالمئات بعد أن كانوا يعدّون بالآلاف.

وهكذا شهد القرن الماضي أشكالاً متفاوتة من الصلات السياسية والثقافية والاقتصادية، تراوحت بين دفء وبرود، وامتداد وانكماش، وكانت العلاقات بين البلدين مسرحًا تتنازعه منافسات الدول الكبرى وبخاصة بريطانيا، التي ما انفكّت تعمل على إضعاف العلاقات الوديّة في مجملها بين السعودية والاتحاد السوفياتي، وهو الذي رغم نزعته الآيديولوجية لم يتدخّل - كما تذكر الوثائق - في المسار الديني الذي كانت تنتهجه السعودية.

ولعل من أفضل من درس تأثيرات الحج والعوامل الدينية الإسلامية في المجتمع الروسي، وانعكاساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية - وبخاصة بعد ضم الشيشان وداغستان وتترستان وأوزبكستان وقازاقستان وقرغيستان وتركمانستان وأذربيجان إلى روسيا (1898) وزيادة أعداد المسلمين الخاضعين للإمبراطورية الروسية - هو ما كتبه الضابط الروسي عبد العزيز دولتشين المولود عام 1861 وكان يتحدث العربية والفارسية والتركية والفرنسية والإنجليزية، والذي قام برحلة غير معلنة للحج عام 1898 حيث قدّم رواية وصفيّة شملت رحلات الحج من روسيا في تلك الفترة (نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) وغطّت مظاهر الروابط التاريخية بين شعوب آسيا الوسطى وبلاد الحرمين الشريفين، وقد صدر الكتاب مؤخّرًا بعنوان «الحج قبل مائة سنة: الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة 1898 - 1899 الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي» قدّم فيه سردًا لتاريخ الإسلام السياسي في روسيا، وبدايات الاهتمام بظاهرة تنامي الروح الدينية في الأقاليم الخاضعة لها، وإنشاء المساجد والمراكز الدينية ونشر الكتب، وترجمات معاني القرآن الكريم، وهو ما دعا القيادة السياسية الروسية إلى جمع المعلومات عن دور الإسلام في الحياة الاجتماعية والسياسية للسكان المسلمين في روسيا ومن ثمّ إيفاد دولتشين، فلقد اكتسب الحج أهمية خاصة بالنسبة روسيا لأنه كان سبيلاً لتسرب مختلف المذاهب الإسلامية إلى روسيا، كما وجدت القيادة الروسية في دراسة التجمّع في الحج آنذاك وسيلة لمعرفة التوجّهات السياسية وكسب تأييد المعسكرات المتضادّة الممثلة فيه، كما انتقلت بواسطة الحج بعض العبادات والطرائق والأفكار والعادات الدينية، فضلاً عن انتقال الكتب والمطبوعات الإسلامية المؤثّرة، ووصف هذا الكتاب الذي نشره يفيم ريزفان (بيروت 1944ط 3 ثم أعيدت طباعته حديثًا في لبنان) الدروب الرئيسية للحج الروسي، وتكاليفه، وأعداده، وفئاته، والمدد التي يستغرقها، والجاليات المستقرة في الحجاز من روسيا، والأوضاع الصحية بين الحجاج، ومأكولاتهم ووسائل مواصلاتهم، والمخاطر والابتزازات التي يتعرضون لها في طريقهم، ثم تحدث عن تأثير الحج على المسلمين القادمين من روسيا وتأثيرهم في الحجاز والدوافع التي تدفعهم للحج، وذكر الكتاب أن عدد الحجاج القادمين من روسيا في نهاية القرن التاسع عشر بلغ نحو (3500) من أصل ما يقرب من إجمالي مائة ألف حاج من أنحاء العالم الإسلامي، كما ذكر أسماء مطوّفين من أصول بخارية يتولون أمر الحجاج القادمين من روسيا، وقدم الكتاب إحصائيات توضح تناقص أعداد الحج من روسيا، حيث أصبح يقاس بالمئات، بشكل لا يتناسب مع مجمل عدد المسلمين في روسيا.



الملك عبد العزيز

وبلغ من اهتمام الروس بالدراسات المتصلة بالإسلام والمسلمين أن قاموا منذ عام 1910 بترجمة أبرز كتب الرحالة والمستشرقين، مثل ذلك الكتاب الذي ألّفه الرحالة الهولندي سنوك هورخرونيه عن وصف مكة المكرمة عام 1885 وكذلك كتاب رالي «مكة المكرمة في أوصاف الأوروبيين» وبالإضافة إلى كتاب دولتشين هذا، هناك كتاب قديم نادر طبع في روسيا بالعربية قبل مائة وخمسة عشر عامًا يحكي (أخبار التتار والبلغار) للشيخ الرمزي، وكان من أبرز ما تضمّنه قائمة بعلماء روسيا من ذوي العلاقة ببلاد الحرمين الشريفين مطلع القرن الماضي.

وبمناسبة الحديث عن الهجرات إلى الحجاز، يثبت عدد من المؤرخين والرحالة والمستشرقين، أن مهاجرين ومجاورين من شعوب وسط آسيا ومن يطلق عليهم مصطلح البخارية أو قديمًا (الموسكوف) كانوا موجودين في الحجاز قبل القرن التاسع عشر، وأصبحوا جزءًا من بنية الحياة الاجتماعية اليومية المكيّة والمدنيّة جنبًا إلى جنب مع هجرات أخرى ؛ مصرية وتركية وجاويّة وهندية وأفريقية.

كانت هجرة جاليات وسط آسيا قد تمت على ثلاث مراحل، بدأت بوادرها في سنة 1885 ثم في مطلع القرن العشرين (في حدود عام 1917) عند قيام الثورة البلشفية، وبلغت حدتها في سنة 1933 حيث وفدت مئات من التركستانيين (ومنها الطاشكندي، والقوقندي، والمرغلاني، والإنديجاني) وكان من بين هذه الجاليات علماء وحرفيون نقلوا معهم معارفهم وثقافاتهم، وبينما تذكر الدراسات أن بعض تلك الهجرات كانت من كبار السن والمنقطعين عن أقاربهم، فإن أعدادًا منهم كانوا صغار السن من أبناء العلماء والتجار، حتى إن أغلبهم مرّ في أفغانستان وباكستان للتزوّد ببعض العلوم، وقد أكرم الملك عبد العزيز وفادتهم، وربما يكون هو الذي اختار الطائف مقرًا لإقامة معظمهم، حتى أن حيًا كاملاً في الطائف (الشرقية) يسمّى باسمهم، وكان من أبرز آثار الطوائف القادرة من هذه الجاليات، جهودها الجماعية في إقامة الأربطة والأوقاف التي يعود تاريخ بعضها في مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى ما يزيد على مائتي عام، وقد سميت هذه الأربطة الخيرية ـ التي كانت توقف على إسكان الحجاج وطلبة العلم وتغذيتهم أحيانًا ـ سميت بأسماء مدن تميّز تلك الجاليات (كالقستي والسمرقندي والقوقندي والأنديجاني والنمنكاني) وقد تُلحق بها مدارس لتحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية، مع استخدامها لإقامة المناسبات الدينية والولائم الخيرية وإطعام المحتاجين، ونظرًا لانقطاع الصلة المباشرة لمعظم تلك الجاليات المهاجرة مع مواطنهم الأصلية، ولما يتطلبه الاندماج في المجتمع الحجازي، فإن البعض يرى في علاقته بالمجتمع الأصلي علاقة رمزية، ويسعى للتأكيد على هويته السعودية وحذف ما يشير إلى جذوره القومية والحرص على التزاوج مع الأسر المحلية، أسوة بالجاليات المهاجرة الأخرى، ويتركز نشاط معظم تلك الجاليات في التجارة وفتح المطاعم، حيث نجحت في إشاعة مأكولات معينة أصبحت مع السنوات جزءًا من الوجبات الوطنية، كما انخرط جزء منهم في الوظائف الحكومية عامة وفي التخصصات الأمنية بخاصة، والتحق أبناؤها بدراسات الشريعة والطب والهندسة والمكتبات على وجه الخصوص.

ولا يكتمل الحديث عن الصلات الثقافية بين روسيا وبلاد الحرمين الشريفين، دون التطرق إلى دور ثقافة الاستشراق، وإلى جهود الرحالة والمؤرخين وكتاباتهم، فبرغم أهمية الاستشراق الروسي الذي ألّفت عنه الكتب وكتب عنه الكثير من الأبحاث، ورغم كثرة المستشرقين والرحالة الروس، مع أن القليل منهم زار الأراضي المقدسة لأسباب دينية، لكن القاسم المشترك الأهم في كثير من الدراسات الاستشراقية الروسية الاهتمام بتحليل الروابط الدينية بين روسيا وبلاد الحرمين الشريفين، وبتأثير الحج على أساس أنه أحد دوافع الرحلات، وأحد أبرز مظاهر التديّن للمسلمين، كما عنيت بترجمات معاني القرآن الكريم وصحيح البخاري وعيون الكتب الإسلامية والعربية، وتعيد بعض تلك الدراسات تاريخ بدء اهتمام أهل المشرق العربي بالروس إلى العصر العباسي الأول، عندما توغّل التجار العرب في الأراضي الروسية لأغراض التجارة وحب الاستطلاع، وبادلهم التجار الروس ذلك بقصد التجارة أو الحج، ثم زادت الروابط وثوقًا بعد سقوط الإمبراطورية المغولية، وما تبع ذلك من توغّل روسيا في آسيا الوسطى الغنية بالمعارف وبالثقافة العربية والإسلامية والكتب والمخطوطات من آثار البيروني والفارابي والرازي وابن سينا وغيرهم، فربط الإسلام بينها وبين العرب، بعد أن أصبح فيها نحو (25) مليونا من المسلمين في آسيا والقوقاز، وما يزال أحفادهم يتحدثون العربية إلى اليوم.

كانت الأواصر الثقافية التي ربطت روسيا بالعرب ولغتهم وديانتهم، بدأت عمليًا في أواخر القرن السابع عشر، عندما قامت الدوائر العلمية الروسية بترجمة الكثير من الكتابات والمصادر الأوروبية، ثم كان انفتاح القيصر بطرس الأول على الثقافتين الغربية والشرقية، ورغبته في التعرف على الإسلام، فصار الاهتمام بالإسلام يأخذ منحى علميًا بدأه المستشرق الروسي (كانتمير) الذي تناول ظروف النشأة التاريخية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أقام أول مطبعة عربية في روسيا، وقد شهد مطلع القرن الثامن عشر أول ترجمة روسية لمعاني القرآن الكريم (1716) وكان قرار القيصر بتأسيس قسم خاص لدراسة الحضارة العربية والإسلامية في أكاديمية العلوم الروسية، ومن ثم إيفاد بعثات لدراسة اللغة العربية مفتاحًا حقيقيًا لانتشار متحدثيها في الدوائر العلمية والرسمية الروسية، بعد أن تعمّقوا في عالم الشرق وثقافته وديانته.

وهكذا كانت صلات الحج والروابط الدينية بين مسلمي آسيا الوسطى وبلاد الحرمين خصوصًا والمشرق عمومًا، أحد حوافز نشاط الاستشراق والاهتمام السياسي الروسي، ويكفي أن يُشار إلى الدراسة التي أنجزها فاسيلييف (الثاني) عن تاريخ السعودية (موسكو، دار التقدم 1986) واعتمدت كثيرًا على التراث الاستشراقي في محاولته لفهم الخلفية الثقافية لتاريخ شعب الجزيرة العربية.

وشهدت الأعوام الخمسة والعشرون الماضية منذ أن عادت العلاقات السياسية إلى صافي طبيعتها القديمة، عددًا من الندوات والفعاليات والمؤلفات والأطروحات العلمية والمنح الدراسية ومراكز الدراسات والزيارات الرسمية المتبادلة التي تعزز من وديّة العلاقة وتزيدها حميمية، مشيرًا في هذا الصدد إلى عشرات الكتب التي أصدرها الداعية والرحّالة السعودي الشيخ محمد ناصر العبودي عن روسيا بخاصة وعن بلاد ما وراء النهر وآسيا الوسطى بعامة، وإلى كتاب «العلاقات السعودية السوفياتية والسعودية الروسية 1926 - 1997» لعلي محمد الشهري الصادر عام 2001 معتمدًا على أرشيف السياسة الخارجية الروسية للاتحاد السوفياتي، وإلى كتاب «العلاقات السعودية الروسية في ضوء المتغيّرات الإقليمية والدولية 1926 - 2004» للدكتور ماجد التركي (2004) وهي دراسة علميّة مجازة من قسم العلوم السياسية بجامعة موسكو، وإلى بحث حديث بعنوان «العلاقات السعودية السوفياتية بين عامي 1926 و1938» للدارسة هبة السبيعي من قسم التاريخ بجامعة الملك سعود بالرياض، وإن إقامة هذا الملتقى الثقافي بمناسبة اليوم الوطني السعودي والمصادف لمرور ربع قرن على استئناف العلاقات السعودية الروسية، هي فرصة تشيّد من جديد جسرًا ثقافيًا مع منطقة طالما أسدت للحضارة الإسلامية كنوزًا من المعارف والمخطوطات وأسهم مفكروها وعلماؤها في خدمة التراث العربي والإسلامي، ومناسبة تمدّ ذراعًا من التواصل لتعزيز الاحترام المتبادل والشراكة الثنائية المتكافئة.

* إعلامي وباحث سعودي

• روسيا السوفياتية كانت أول حكومة اعترفت بسلطة الملك عبد العزيز على الحجاز 1926

• لا يكتمل الحديث عن الصلات الثقافية بين روسيا وبلاد الحرمين الشريفين دون التطرق إلى دور ثقافة الاستشراق

حياة شرارة لم تفلح في كتابة سيرة «عاشقة الليل»

صفحات من حياة نازك الملائكة التي غيّرت خريطة الشعر العربي

لندن: عدنان حسين أحمد

لم تفلح الدكتورة حياة شرارة في كتابة السيرة الذاتية للشاعرة نازك الملائكة لسببين أساسيين وهما وجود بعض الفجوات التي لم تستطع أن تغطّيها في السياق الزمني مثل حقبة الستينات التي ظلت مجهولة لكاتبة السيرة وليس لديها إلاّ بعض المعلومات المُبتسرة التي لا تفي بالغرض المطلوب. والسبب الثاني هو شحة المعلومات عن بعض أفراد أسرتها وأقاربها. وقد أوشكت شرارة أن تغض النظر نهائيًا عن هذه السيرة متذرعة بالنسيان وكثرة الشواغل لكنها اقتنعت بضرورة إصدار الكتاب تحت عنوان «صفحات من حياة نازك الملائكة» وليس سيرة ذاتية لها كي لا تنحرج من الفجوات الزمنية وشحة المعلومات.

لا بد من الإشارة إلى أن نازك قد ولدت في 23 أغسطس (آب) 1923. وقد سمّاها الوالد نازك تيمنا باسم الثائرة السورية نازك العابد. كانت عائلة نازك تحمل لقب اللخمي حتى عام 1760، وهو العام الذي مُنحت فيه العائلة لقب الجلبي بفرمان سلطاني وظل هذا اللقب قائمًا حتى وصفَ الشاعر عبد الباقي العمري عائلتها بأنهم يشبهون الملائكة في هدوئهم فاستحسنت العائلة اللقب الجديد وتبنته بشكل دائم.

لا ننفي أهمية وتأثير بعض أفراد الأهل والأقارب على نازك ولكن تظل حياتها الشخصية وتجربتها الشعرية هي المحور الأساسي لهذه «الصفحات» أما الإطناب في وصف المنازل التي سكنتها والموضوعات الجانبية التي خاضتها فقد أثقلت كاهل الكتاب بمعلومات زائدة لا تلبي حاجة القارئ اللبيب.

لا شك في أنّ هذه «الصفحات» مكتظة بالوقائع والأحداث والمعلومات الشخصية التي تصبّ في السيرة الذاتية والإبداعية للشاعرة. فالتلميذة نازك كانت تحب اللغة العربية والإنجليزية والتاريخ والفلك والعلوم ولكنها كانت تمقت الرياضيات مقتًا شديدًا. نظمت الشعر المحكي «العامي» قبل سن السابعة، وكتبت أول قصيدة بالفصحى وهي في سن العاشرة، كما كانت تُلحّن وتغنّي في الوقت ذاته. تأثرت بعدد من الشعراء نذكر منهم محمود حسن إسماعيل، وبدوي الجبل، وبشارة الخوري. نشرت أولى قصائدها في مجلة «الصبح» وهي في سن الثالثة عشرة ولكنها لم تُدرجها في ديوان «عاشقة الليل» لأنها تنتمي إلى مرحلة ما قبل النُضج، كما نشرت قصائد أخرى في مجلة «فتاة العراق» قبل أن تحتفي بها مجلة «الآداب» اللبنانية المقروءة على نطاق واسع في الأوساط الثقافية العربية. تنطوي هذه الصفحات على شذرات مهمة تسلّط الضوء على بعض الجوانب النفسية في حياة نازك فهي شخصية إشكالية بامتياز، فقد كانت ميّالة للعزلة منذ طفولتها إذ كانت تشعر بأنها مختلفة عن سائر الفتيات في سنها فلا غرابة أن تنطوي على نفسها في مرحلة الطفولة والصبا ولكنها بدأت تحب الصداقة وتُسعَد لمعرفة الناس بعد سن الثلاثين. وتعترف نازك بأن فلسفة شوبنهاور المتشائمة قد أثرّت على حياتها في مرحلة الشباب تأثيرا كبيرا. ثم توسعت قراءاتها الفلسفية لتمتد إلى نيتشه وجورج سانتيانا وجون ديوي. يوضّح لنا التشاؤم، المُشار إليه سلفًا، أنّ أسباب الحزن والكآبة والألم هي التي تطغى على قصائد نازك في الأعم الأغلب.



نازك الملائكة

دخلت نازك معهد الفنون الجميلة عام 1942 ودرست في فرع العود على يد الفنان محيي الدين حيدر، كما درست التمثيل لعدة أشهر لكنها توقفت عندما تعارضت دروسه مع دروس العود. وهذه مرحلة مهمة جدًا في حياة نازك فمعظم أخوالها كانوا يعزفون على العود والكمان وحتى أمها التي لم تكن تعرف العزف على الكمان كانت تمرر أناملها على الأوتار قبل أن ينام الأطفال لكي تألف آذانهم الأنغام الموسيقية وهم لم يكملوا سنتهم الأولى بعد!

تعلّمت نازك بتحريض من نزار الإنجليزية والفرنسية التي لم تتقن لفظها جيدا، كما حاولت تعلّم اللغة اللاتينية الأمر الذي أتاح لها التلاقح مع الثقافات الأوروبية على وجه التحديد وفتح مخيلتها الشعرية على آفاق لم تألفها من قبل.

توقفت د. شرارة عند قصيدة «الكوليرا» التي كتبتها نازك في 27 أكتوبر (تشرين الأول) 1947 بينما كانت تستمع إلى المذياع وهو ينقل أخبار جائحة الكوليرا التي ضربت مصر وارتفع عدد ضحاياها في اليوم الواحد إلى ألف ضحية وهو رقم كارثي كبير دفعها لأن تنجز القصيدة في بحر ساعة واحدة لا غير، وقد نظمتها بأسلوب الشعر الحر الذي لم يعجب أمها أول الأمر حيث قالت: «ما هذا الوزن الغريب؟ إن الأشطر غير متساوية، وموسيقاها ضعيفة يا بنيتي» (ص135). أما الأب الذي لم ترُق له هو الآخر هذه القصيدة فقد ردّ عليها ببيت شعري يقول فيه:

(لكل جديد لذة غير أنني/ وجدت جديد «الموت» غير لذيذ).

غضبت نازك وقالت بصوت عالٍ: «قل ما تشاء. إني واثقة أن قصيدتي ستغيّر خريطة الشعر العربي» (ص135). وقد صدقت نبوءتها بالفعل وترسّخ اسمها في المشهد الشعري العراقي كواحدة من روّاد الشعر الحر مع نخبة من أقرانها المعروفين مثل السياب والبياتي والحيدري وشاذل طاقة. وبدأ صيتها يذيع عربيًا بعد أن أصدرت «عاشقة الليل»، و«شظايا ورماد».

انتبه إليها في بغداد الشاعر البريطاني ديزموند ستيورات فحصل لها عام 1950 على زمالة دراسية في جامعة برنستون بولاية نيوجرسي وكانت الطالبة الوحيدة فيها لأن هذه الجامعة كانت مخصصة للبنين فقط. وقد أفادت فائدة جمّة خلال وجودها في أروقة هذه الصرح الثقافي الكبير.

عانت نازك من تجربة مريرة حينما رافقت أمها المصابة بورم في رأسها إلى لندن. وبعد إجراء العملية توفيت الأم فدفنتها هناك وبدأت تشعر بالحزن والكآبة حتى إن طبيبًا نفسانيًا أشرف على علاجها وكانت هذه بداية لإصابتها بمرض الأعصاب الذي سيتفاقم في النصف الثاني من الثمانينات. ويعوقها من الكتابة في بعض الأحايين.

أفادت نازك كثيرًا من رحلتها الثانية إلى أميركا، حيث نالت الماجستير من جامعة وسكونسون في مدينة ماديسون ونشرت الكثير من المقالات باللغة الإنجليزية. وحينما عادت إلى العراق عُينت عام 1957 مُدرّسة معيدة في كلية التربية لتنتقل بعد زواجها من الدكتور عبد الهادي محبوبة إلى جامعة البصرة ومنها إلى بغداد التي أمضيا فيها سنة واحدة قبل أن يذهبا إلى جامعة الكويت.

تفاقم مرضها العصبي فأخذت تتناول الحبوب المهدئة التي تبعث الخمول في أوصالها وتمنعها من الانفعال الذي يحتاج إليه الشعر فانحسر نشاطها الأدبي والفكري ولم تستطع الرد حتى على رسائل الأهل والأصدقاء. عادت إلى العراق عام 1987، ثم كرّمتها جامعة البصرة بالدكتوراه الفخرية، لكنها لم تستطع الذهاب إلى حفل التكريم بسبب المرض. وفي عام 2007 توفيت في القاهرة إثر هبوط حاد في الدورة الدموية ووريت الثرى عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.

أصدرت نازك ثمانية دواوين شعرية نذكر منها «قرارة الموجة»، «شجرة القمر» و«يغيّر البحر ألوانه». أما أهم كتبها النقدية فهو «قضايا الشعر المعاصر» و«سيكولوجية الشعر». لم تقتصر نازك على كتابة الشعر ونقده وإنما كتبت القصة القصيرة وأصدرت عام 1997 مجموعة بعنوان «الشمس التي وراء القمة»، كما حاولت كتابة رواية كان في نيتها أن تسمّيها «ظل على القمر» لكنها لم تكملها مع الأسف الشديد.